مركز حمورابي

التدمير الذاتي لإسرائيل
نتنياهو والفلسطينيون وثمن الإهمال

التدمير الذاتي لإسرائيل
نتنياهو والفلسطينيون وثمن الإهمال

بقلم ألوف بن
ترجمة د سعد علي حسين التميمي

مركز حمورابي للبحوث و الدراسات الاستراتيجية

24 شباط **2023**

حقوق النشر محفوظةلمركز حمورابي
للبحوث و الدراسات الاستراتيجية

لا يجوز نشر أي من هذه الأبحاث و الدراسات و المقالات إلا بموافقة المركز, و يجوز الإقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً , و ليس من الضروري أن تمثل المقالات و الأبحاث و الدراسات و الترجمات المنشورة وجهة نظر المركز , وإنما تمثل وجهة نظر الباحث.

في أحد الأيام المشرقة من إبريل/نيسان 1956، توجه موشيه ديان رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي ذو العين الواحدة جنوباً إلى ناحال عوز، وهو كيبوتز تم إنشاؤه حديثاً بالقرب من حدود قطاع غزة، وجاء ديان لحضور جنازة روي روتبرغ البالغ من العمر 21 عامًا، والذي قُتل في صباح اليوم السابق على يد فلسطينيين بينما كان يقوم بدورية في الحقول على ظهور الخيل، وقام القتلة بسحب جثة روتبرغ إلى الجانب الآخر من الحدود، حيث تم العثور عليها مشوهة وعيناها منتفختان، وكانت النتيجة صدمة ومعاناة على الصعيد الوطني.

ولو كان ديان يتحدث في إسرائيل المعاصرة، لكان قد استخدم تأبينه إلى حد كبير لنسف القسوة الرهيبة لقتلة روتبيرج، ولكن كما تم صياغته في الخمسينيات، كان خطابه متعاطفًا بشكل ملحوظ مع الجناة، فقد قال ديان: "دعونا لا نلقي اللوم على القتلة"، "فمنذ ثماني سنوات، وهم يجلسون في مخيمات اللاجئين في غزة، وأمام أعينهم كنا نحول الأراضي والقرى التي سكنوا فيها هم وآبائهم إلى ممتلكاتنا"، وكان ديان يلمح إلى النكبة، عندما تم طرد غالبية العرب الفلسطينيين إلى المنفى بسبب انتصار إسرائيل في حرب الاستقلال عام 1948، وتم نقل العديد منهم قسراً إلى غزة، بما في ذلك سكان المجتمعات التي أصبحت في نهاية المطاف بلدات وقرى يهودية على طول الحدود.

ولم يكن ديان مؤيدا للقضية الفلسطينية، ففي عام 1950 وبعد انتهاء الأعمال العدائية، قام بتنظيم تهجير المجتمع الفلسطيني المتبقي في بلدة المجدل الحدودية، وهي مدينة عسقلان الإسرائيلية الآن، ومع ذلك، أدرك ديان ما يرفض العديد من الإسرائيليين اليهود قبوله: لن ينسى الفلسطينيون النكبة أبدًا أو يتوقفوا عن الحلم بالعودة إلى ديارهم، وفي ذلك اعلن ديان في تأبينه قائلا "دعونا لا نرتدع عن رؤية الكراهية التي تلهب وتملأ حياة مئات الآلاف من العرب الذين يعيشون حولنا"، ، وقال كذلك "هذا هو خيار حياتنا: أن نكون مستعدين ومسلحين، أقوياء ومصممين، لئلا يسقط السيف من قبضتنا وتنتهي حياتنا."

وفي 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023، تحقق تحذير ديان القديم بأكثر طريقة دموية ممكنة في أعقاب خطة دبرها يحيى السنوار، أحد قادة حماس المولود لعائلة أجبرت على الخروج من المجدل، فقد قام المسلحون الفلسطينيون بغزو إسرائيل في حوالي 30 نقطة على طول حدود غزة، وحققوا المفاجأة الكاملة، حيث اجتاحوا دفاعات إسرائيل الضعيفة وشرعوا في مهاجمة مهرجان موسيقي،

وبلدات صغيرة، وأكثر من 20 كيبوتسًا، وقتلوا حوالي 1200 مدني وجندي وخطفوا أكثر من 200 رهينة، وقد سلبوا وأحرقوا ، وقد عاد أحفاد سكان مخيم ديان للاجئين ــ الذين تغذيهم نفس الكراهية والكراهية التي وصفها ديان ولكنهم الآن أفضل تسليحاً وتدريباً وتنظيماً ــ للانتقام.

كان يوم 7 أكتوبر أسوأ كارثة في تاريخ إسرائيل، وإنها نقطة تحول وطنية وشخصية لكل من يعيش في البلد أو يرتبط به، وبعد فشله في وقف هجوم حماس، رد جيش الدفاع الإسرائيلي بقوة ساحقة، فقتل الآلاف من الفلسطينيين ودمر أحياء بأكملها في غزة، ولكن حتى في الوقت الذي يقوم فيه الطيارون بإسقاط القنابل وقيام قوات الكوماندوز بتطهير أنفاق حماس، فإن الحكومة الإسرائيلية لم تأخذ في الاعتبار العداء الذي أدى إلى الهجوم - أو ما هي السياسات التي قد تمنع وقوع هجوم آخر، ويأتي صمتها بناءً على طلب رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، الذي رفض وضع رؤية أو نظام لما بعد الحرب، وقد وعد نتنياهو بـ "تدمير حماس"، ولكن باستثناء القوة العسكرية، فإنه ليس لديه استراتيجية للقضاء على الجماعة ولا خطة واضحة لما سيحل محلها كحكومة الأمر الواقع في غزة ما بعد الحرب.

وفشله في وضع استراتيجية ليس من قبيل الصدفة، كما أنه ليس عملاً من أعمال النفعية السياسية يهدف إلى الحفاظ على تماسك ائتلافه اليميني، ومن اجل ان تعيش إسرائيل في سلام، يتعين عليها أن تتصالح أخيراً مع الفلسطينيين، وهو الأمر الذي عارضه نتنياهو طوال حياته المهنية، فقد كرس فترة ولايته كرئيس للوزراء، وهي الأطول في تاريخ إسرائيل، لتقويض وتهميش الحركة الوطنية الفلسطينية، وقد وعد شعبه بأنهم سيكونون قادرين على تحقيق الازدهار من دون السلام، وقد باع البلاد على أساس فكرة أنها تستطيع الاستمرار في احتلال الأراضي الفلسطينية إلى الأبد بتكلفة محلية أو دولية قليلة،

وحتى الآن وفي أعقاب 7 أكتوبر، لم يغير هذه الرسالة، والشيء الوحيد الذي قال نتنياهو إن إسرائيل ستفعله بعد الحرب هو الحفاظ على "محيط أمني" حول غزة - وهو تعبير ملطف مستتر للاحتلال طويل الأمد، بما في ذلك تطويق على طول الحدود من شأنه أن يلتهم قطعة كبيرة من الأراضي الفلسطينية الشحيحة.

ولكن لم يعد من الممكن لإسرائيل أن تظل ضيقة الأفق إلى هذا الحد، فقد أثبتت هجمات 7 أكتوبر/تشرين الأول أن وعد نتنياهو كان اجوف واخرق، وعلى الرغم من عملية السلام الميتة وتراجع اهتمام الدول الأخرى،

إلا أن الفلسطينيين حافظوا على قضيتهم حية، وفي لقطات الكاميرا التي التقطتها حماس في 7 أكتوبر/تشرين الأول، يمكن سماع الغزاة وهم يصرخون: "هذه أرضنا!" أثناء عبورهم الحدود لمهاجمة الكيبوتس، وقد صاغ السنوار العملية بشكل علني باعتبارها عملا من أعمال المقاومة، وكان الدافع الشخصي على الأقل جزئيًا هو النكبة، فقد قضى زعيم حماس 22 عاما في السجون الإسرائيلية، ويقال إنه كان يقول لزملائه في الزنزانة باستمرار إنه يجب هزيمة إسرائيل حتى تتمكن عائلته من العودة إلى قريتها.

لقد أجبرت صدمة السابع من تشرين الأول (أكتوبر) الإسرائيليين مرة أخرى، على إدراك أن الصراع مع الفلسطينيين يشكل أهمية مركزية لهويتهم الوطنية ويشكل تهديداً لرفاهيتهم ولا يمكن التغاضي عنه أو تجاوزه، واستمرار الاحتلال، وتوسيع المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، وفرض الحصار على غزة، ورفض تقديم أي تسوية إقليمية (أو حتى الاعتراف بالحقوق الفلسطينية) لن يجلب للبلاد الأمن الدائم، ومع ذلك، فإن التعافي من هذه الحرب وتغيير المسار سيكون أمراً صعباً للغاية، وليس فقط لأن نتنياهو لا يريد حل الصراع الفلسطيني، فقد وجدت الحرب طريقها الى اسرائيل إسرائيل في أكثر لحظاتها انقساما في التاريخ، ففي السنوات التي سبقت الهجوم، كانت البلاد منقسمة بسبب جهود نتنياهو لتقويض مؤسساتها الديمقراطية وتحويلها إلى دولة استبدادية قومية ثيوقراطية، وأثارت مشاريع القوانين والإصلاحات التي قدمها احتجاجات وانشقاقات واسعة النطاق هددت بتمزيق البلاد قبل الحرب وستطاردها بمجرد انتهاء الصراع، وفي الواقع، سوف يصبح الصراع حول بقاء نتنياهو السياسي أكثر حدة مما كان عليه قبل السابع من أكتوبر، مما يجعل من الصعب على البلاد أن تسعى إلى تحقيق السلام.

ولكن مهما حدث لرئيس الوزراء، فمن غير المرجح أن تجري إسرائيل محادثة جدية حول التسوية مع الفلسطينيين، فقد تحول الرأي العام الإسرائيلي ككل نحو اليمين، وأصبحت الولايات المتحدة منشغلة على نحو متزايد بانتخابات رئاسية حاسمة،

ولن يكون هناك سوى القليل من الطاقة أو الحافز لإعادة إشعال عملية سلام ذات معنى في المستقبل القريب.

لا يزال السابع من تشرين الأول (أكتوبر) يمثل نقطة تحول، ولكن الأمر متروك للإسرائيليين ليقرروا نوع نقطة التحول التي ستكون عليها فإذا استجابوا أخيراً لتحذير ديان، فمن الممكن أن تجتمع البلاد وترسم الطريق إلى السلام والتعايش الكريم مع الفلسطينيين،

لكن المؤشرات حتى الآن تشير إلى أن الإسرائيليين، بدلاً من ذلك، سيواصلون القتال فيما بينهم وسيواصلون الاحتلال إلى أجل غير مسمى، وهذا يمكن أن يجعل يوم 7 تشرين الأول (أكتوبر) بداية عصر مظلم في تاريخ إسرائيل - عصر يتسم بمزيد من العنف المتزايد، ولن يكون الهجوم حدثًا لمرة واحدة، بل نذيرًا لما سيأتي.

وعد مكسور

في التسعينيات، كان نتنياهو نجماً صاعداً في المشهد اليميني في إسرائيل، وبعد أن صنع اسمه سفيرا لإسرائيل لدى الأمم المتحدة من عام 1984 إلى عام 1988، أصبح مشهورا على نطاق واسع من خلال قيادة المعارضة لاتفاقيات أوسلو، وهي خطة عام 1993 للمصالحة الإسرائيلية الفلسطينية التي وقعتها الحكومة الإسرائيلية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وبعد اغتيال رئيس الوزراء إسحق رابين في تشرين الثاني/نوفمبر 1995 على يد متعصب إسرائيلي يميني متطرف، وبعد موجة من الهجمات الإرهابية الفلسطينية في المدن الإسرائيلية، تمكن نتنياهو من هزيمة شمعون بيريز، المهندس الرئيسي لاتفاق أوسلو للسلام، بفارق وهامش ضئيل للغاية في سباق رئاسة الوزراء عام 1996، وبمجرد وصوله إلى منصبه، وعد بإبطاء عملية السلام وإصلاح المجتمع الإسرائيلي من خلال "استبدال النخب"، التي اعتبرها ضعيفة ومال إلى تقليد الليبراليين الغربيين، عن طريق هيئة من المحافظين الدينيين والاجتماعيين.

الا ان طموحات نتنياهو المتطرفة قوبلت بمعارضة مشتركة من النخب القديمة وإدارة كلينتون، كما أن المجتمع الإسرائيلي، الذي كان لا يزال داعمًا بشكل عام لاتفاقية السلام، سرعان ما استاء من الأجندة المتطرفة لرئيس الوزراء، وبعد ثلاث سنوات، أطاح به الليبرالي إيهود باراك، الذي تعهد بمواصلة عملية أوسلو وحل القضية الفلسطينية برمتها.

لكن باراك فشل، كما فشل خلفاؤه، فحين أكملت إسرائيل انسحابها الأحادي من جنوب لبنان في ربيع عام 2000، تعرضت لهجمات عبر الحدود وتعرضت للتهديد بسبب الحشد الهائل لحزب الله، ثم انهارت عملية السلام عندما أطلق الفلسطينيون الانتفاضة الثانية في ذلك الخريف، وبعد خمس سنوات، مهد انسحاب إسرائيل من قطاع غزة الطريق أمام حماس لتولي زمام الأمور هناك، وقد فقد الجمهور الإسرائيلي، الذي كان مؤيداً لعملية السلام ذات يوم، شهيته للمخاطر الأمنية التي تصاحب ذلك، وترددت العبارة الشائعة التي تقول "لقد عرضنا عليهم القمر والنجوم وحصلنا في المقابل على انتحاريين وصواريخ"،

و(الحجة المضادة تتمثل في ان إسرائيل عرضت أقل مما ينبغي وأنها لن توافق أبدا على دولة فلسطينية مستدامة - ولم تجد لها صدى يذكر)، وفي عام 2009، عاد نتنياهو إلى السلطة، وهو يشعر بأنه قد تم تبريره، ففي نهاية المطاف، أصبحت تحذيراته ضد التنازلات الإقليمية لجيران إسرائيل حقيقة.

وبعد عودته إلى منصبه، عرض نتنياهو على الإسرائيليين بديلاً مناسباً لصيغة "الأرض مقابل السلام" التي فقدت مصداقيتها الآن، فقد قال إن إسرائيل يمكن أن تزدهر كدولة على النمط الغربي - بل وتتواصل مع العالم العربي ككل - بينما تدفع الفلسطينيين جانباً، وكان المفتاح هو فرق تسد، ففي الضفة الغربية، حافظ نتنياهو على التعاون الأمني مع السلطة الفلسطينية، التي أصبحت بحكم الأمر الواقع المقاول الفرعي للخدمات الاجتماعية والشرطة لإسرائيل، وشجع قطر على تمويل حكومة حماس في غزة، وقال نتنياهو للتجمع البرلماني لحزبه في عام 2019: "على كل من يعارض قيام دولة فلسطينية أن يدعم توصيل الأموال إلى غزة لأن الحفاظ على الفصل بين السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وحماس في غزة سيمنع إقامة دولة فلسطينية"، وهو تصريح عاد ليطارده.

واعتقد نتنياهو أنه قادر على إبقاء قدرات حماس تحت السيطرة من خلال الحصار البحري والاقتصادي، وأنظمة الدفاع الصاروخية والحدودية المنشورة حديثًا، والغارات العسكرية الدورية على مقاتلي الجماعة وعلى البنية التحتية، وأصبح هذا التكتيك الأخير، الذي أطلق عليه اسم "قص او جز العشب"، جزءًا لا يتجزأ من العقيدة الأمنية الإسرائيلية، إلى جانب "إدارة الصراع" والحفاظ على الوضع الراهن. واعتقد نتنياهو أن النظام السائد كان متينا، ومن وجهة نظره انه كان مثاليا: فالحفاظ على صراع منخفض المستوى للغاية كان أقل خطورة من الناحية السياسية من اتفاق السلام وأقل تكلفة من حرب كبرى.

ولأكثر من عقد من الزمن، بدا أن استراتيجية نتنياهو ناجحة، فقد غرق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في ثورات الربيع العربي وحروبه الأهلية، الأمر الذي جعل القضية الفلسطينية أقل بروزاً بكثير، وتراجعت الهجمات الإرهابية إلى مستويات منخفضة جديدة، وعادة ما تم اعتراض الصواريخ المنطلقة من غزة بين الحين والآخر، وباستثناء حرب قصيرة ضد حماس في عام 2014، نادرا ما احتاج الإسرائيليون إلى المواجهة المباشرة مع المسلحين الفلسطينيين، وبالنسبة لمعظم الناس، وفي معظم الأوقات، كان الصراع بعيدًا عن الأنظار وبعيدًا عن العقل.

وبدلاً من القلق بشأن الفلسطينيين، بدأ الإسرائيليون في التركيز على عيش الحلم الغربي المتمثل في الرخاء والهدوء، وبين يناير/كانون الثاني 2010 وديسمبر/كانون الأول 2022، تضاعفت أسعار العقارات في إسرائيل، حيث امتلأ أفق تل أبيب بالشقق الشاهقة والمجمعات المكتبية، وتوسعت المدن الصغيرة لاستيعاب الطفرة، ونما الناتج المحلي الإجمالي للبلاد بأكثر من 60% مع إطلاق رواد الأعمال في مجال التكنولوجيا أعمالًا ناجحة واكتشاف شركات الطاقة لرواسب الغاز الطبيعي البحرية في المياه الإسرائيلية، وقد حولت اتفاقيات الأجواء المفتوحة مع حكومات أخرى السفر إلى الخارج، وهو وجه رئيسي لنمط الحياة الإسرائيلي، إلى سلعة رخيصة، وبدا المستقبل مشرقا، ويبدو أن البلاد قد تجاوزت الفلسطينيين، وقد فعلت ذلك دون التضحية بأي شيء – الأراضي والموارد والأموال – في سبيل التوصل إلى اتفاق سلام، اذ يجب على الإسرائيليين أن يحصلوا على كعكتهم وأن يأكلوها أيضاً.

وعلى المستوى الدولي، كانت البلاد مزدهرة أيضًا، فقد صمد نتنياهو أمام الضغوط التي مارسها الرئيس الأميركي باراك أوباما لإحياء حل الدولتين وتجميد المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، وذلك جزئياً من خلال تشكيل تحالف مع الجمهوريين.

وعلى الرغم من فشل نتنياهو في منع أوباما من إبرام اتفاق نووي مع إيران،

إلا أن واشنطن انسحبت من الاتفاق بعد فوز دونالد ترامب بالرئاسة، كما نقل ترامب السفارة الأمريكية في إسرائيل من تل أبيب إلى القدس، واعترفت إدارته بضم إسرائيل لمرتفعات الجولان من سوريا، وفي عهد ترامب، ساعدت الولايات المتحدة إسرائيل على إبرام اتفاقيات إبراهيم، وتطبيع علاقاتها مع البحرين والمغرب والسودان والإمارات العربية المتحدة - وهو الاحتمال الذي بدا مستحيلاً في السابق دون اتفاق سلام إسرائيلي-فلسطيني، وبدأت طائرات محملة بالمسؤولين والقادة العسكريين والسياح الإسرائيليين في التردد على الفنادق الفخمة في مشيخات الخليج وأسواق مراكش.

ومع تهميشه للقضية الفلسطينية، عمل نتنياهو أيضًا على إعادة تشكيل المجتمع الداخلي في إسرائيل، وبعد فوزه المفاجئ بإعادة انتخابه في عام 2015، قام نتنياهو بتشكيل ائتلاف يميني لإحياء حلمه القديم بإشعال ثورة محافظة،

ومرة أخرى، بدأ رئيس الوزراء في مهاجمة "النخب" وبدأ حربًا ثقافية ضد المؤسسة السابقة، التي اعتبرها معادية له وليبرالية للغاية بالنسبة لمؤيديه،

وفي عام 2018، فاز بتمرير قانون رئيسي مثير للجدل يعرف إسرائيل بأنها "الدولة القومية للشعب اليهودي" وأعلن أن اليهود لديهم الحق "الفريد" في "ممارسة تقرير المصير" على أراضيها، وهذا الامر أعطى للأغلبية اليهودية في البلاد الأسبقية وأخضعت شعبها غير اليهودي.

وفي العام ذاته، انهار ائتلاف نتنياهو وغرقت إسرائيل في أزمة سياسية طويلة جرت البلاد عبر خمس انتخابات بين عامي 2019 و2022، وكانت كل منها عبارة عن استفتاء على حكم نتنياهو، وتفاقمت حدة المعركة السياسية بسبب قضية الفساد المرفوعة ضد رئيس الوزراء، مما أدى إلى توجيه اتهامات جنائية له في عام 2020 ومحاكمته المستمرة، وقد انقسمت إسرائيل بين "البيبويين" و"غير البيبويين " («بيبي» هو لقب نتنياهو)، وفي الانتخابات الرابعة في عام 2021، تمكن منافسو نتنياهو أخيرًا من استبداله بـ«حكومة تغيير» بقيادة اليميني نفتالي بينيت ويائير لابيد الوسطي، ولأول مرة يضم الائتلاف طرفا عربيا.

ومع ذلك، فإن المعارضة لنتنياهو لم تتحدى قط الفرضية الأساسية لحكمه: وهي أن إسرائيل يمكن أن تزدهر من دون معالجة القضية الفلسطينية، وأصبح الجدل حول السلام والحرب، الذي كان من الناحية التقليدية موضوعا سياسيا حاسما بالنسبة لإسرائيل، أخبارا في الصفحات الخلفية، وقد شبه بينيت، الذي بدأ حياته المهنية كمساعد لنتنياهو، الصراع الفلسطيني بـ"شظية في المؤخرة" التي يمكن للبلاد أن تتعايش معها، وقد سعى هو و لابيد إلى الحفاظ على الوضع الراهن تجاه الفلسطينيين والتركيز ببساطة على إبقاء نتنياهو خارج منصبه.

وبطبيعة الحال، ثبت أن هذه الصفقة مستحيلة، فقد انهارت "حكومة التغيير" في عام 2022 بعد أن فشلت في إطالة أمد الأحكام القانونية الغامضة التي سمحت لمستوطني الضفة الغربية بالتمتع بحقوقهم المدنية التي حرموا منها جيرانهم غير الإسرائيليين، وبالنسبة لبعض أعضاء التحالف العربي، كان التوقيع على أحكام الفصل العنصري هذه بمثابة تسوية أكثر من اللازم.

اما بالنسبة لنتنياهو، الذي لا يزال يواجه المحاكمة، كان انهيار الحكومة هو بالضبط ما كان يأمل فيه، وبينما نظمت البلاد انتخابات أخرى، قام بتحصين قاعدته من اليمينيين، واليهود المتشددين، واليهود المحافظين اجتماعيا، ومن أجل استعادة السلطة، تواصل بشكل خاص مع مستوطني الضفة الغربية،

وهم الفئة الديموغرافية التي ما زالت تعتبر الصراع الإسرائيلي الفلسطيني سبب وجودها،

وظل هؤلاء الصهاينة المتدينون ملتزمين بحلمهم بتهويد الأراضي المحتلة وجعلها جزءًا رسميًا من إسرائيل، وكانوا يأملون أنه إذا ما أتيحت لهم الفرصة، فإنهم ربما سيتمكنون من طرد السكان الفلسطينيين في المناطق، وقد فشلوا في منع إجلاء المستوطنين اليهود من غزة في عام 2005 عندما كان آرييل شارون رئيسًا للوزراء، ولكن في السنوات التي تلت ذلك، استولوا تدريجيًا على مناصب رئيسية في الجيش الإسرائيلي والخدمة المدنية ووسائل الإعلام مع تحويل أعضاء المؤسسة العلمانية تركيزهم على كسب المال في القطاع الخاص.

وكان لدى المتطرفين مطلبان رئيسيان من نتنياهو، الأول، والأكثر وضوحاً كان توسيع المستوطنات اليهودية، والثاني هو إقامة وجود يهودي أقوى في جبل الهيكل، الموقع التاريخي لكل من الهيكل اليهودي والمسجد الأقصى الإسلامي في البلدة القديمة بالقدس، ومنذ أن سيطرت إسرائيل على المنطقة المحيطة في حرب الأيام الستة عام 1967، منحت الفلسطينيين حكماً ذاتياً شبهاً في الموقع، خوفاً من أن يؤدي إخراجه من الحكم العربي إلى صراع ديني كارثي، لكن اليمين المتطرف الإسرائيلي سعى منذ فترة طويلة إلى تغيير ذلك، وعندما تم انتخاب نتنياهو للمرة الاولى في عام 1996، قام بفتح جدار في موقع أثري في نفق تحت الأرض مجاور للأقصى لكشف آثار من زمن الهيكل الثاني، مما أدى إلى انفجار عنيف للاحتجاجات العربية في القدس، وعلى نحو مماثل، اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الثانية في عام 2000 بعد زيارة قام بها شارون إلى الحرم القدسي، وكان آنذاك زعيم المعارضة كرئيس لحزب نتنياهو، الليكود.

وفي مايو 2021، اندلع العنف مرة أخرى، وهذه المرة كان المحرض الرئيسي هو إيتامار بن جفير، وهو سياسي يميني متطرف احتفل علناً بالإرهابيين اليهود، وافتتح بن جفير "مكتبا برلمانيا" في حي فلسطيني بالقدس الشرقية حيث قام المستوطنون اليهود، مستخدمين سندات الملكية القديمة، بطرد بعض السكان، ونظم الفلسطينيون احتجاجات حاشدة ردا على ذلك، وبعد تجمع مئات المتظاهرين في الأقصى، داهمت الشرطة الإسرائيلية مجمع المسجد، ونتيجة لذلك، اندلع القتال بين العرب واليهود وسرعان ما انتشر إلى المدن المختلطة عرقياً في جميع أنحاء إسرائيل، واستخدمت حماس الغارة كذريعة لاستهداف القدس بالصواريخ، الأمر الذي أدى إلى المزيد من العنف في إسرائيل وجولة أخرى من الأعمال الانتقامية الإسرائيلية في غزة.

ومع ذلك، فقد تلاشى القتال عندما توصلت إسرائيل وحماس إلى وقف جديد لإطلاق النار في ترتيب سريع ومثير للصدمة، وواصلت قطر دفعاتها، وأعطت إسرائيل تصاريح عمل لبعض سكان غزة لتحسين اقتصاد القطاع وتقليل رغبة السكان في الصراع، ووقفت حماس موقف المتفرج عندما ضربت إسرائيل إحدى الميليشيات المتحالفة معها، وهي حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية، في ربيع عام 2023، وسمح الهدوء النسبي على طول الحدود للجيش الإسرائيلي بإعادة نشر قواته ونقل معظم الكتائب القتالية إلى الضفة الغربية، حيث يمكنهم حماية المستوطنين من الهجمات الإرهابية، وفي 7 تشرين الأول/أكتوبر، أصبح من الواضح أن عمليات إعادة الانتشار هذه كانت بالضبط ما أراده السنوار.

انقلاب بيبي

في الانتخابات الإسرائيلية التي جرت في تشرين الثاني/نوفمبر 2022، استعاد نتنياهو السلطة، فقد حصل ائتلافه على 64 مقعداً من مقاعد البرلمان الإسرائيلي البالغ عددها 120 مقعداً، وهو فوز ساحق وفقاً للمعايير الحديثة، وكانت الشخصيات الرئيسية في الحكومة الجديدة هي بتسلئيل سموتريتش، زعيم حزب ديني قومي يمثل مستوطني الضفة الغربية، وبن جفير، ومن خلال العمل مع الأحزاب الأرثوذكسية المتطرفة، وضع نتنياهو وسموتريش وبن جفير مخططًا لإسرائيل الاستبدادية والثيوقراطية، فعلى سبيل المثال، أعلنت المبادئ التوجيهية لمجلس الوزراء الجديد أن "للشعب اليهودي حقًا حصريًا وغير قابل للتصرف في أرض إسرائيل بأكملها" - مما ينكر تمامًا أي مطالبة فلسطينية بالأرض، حتى في غزة، وأصبح سموتريتش وزيراً للمالية وتم تعيينه مسؤولاً عن الضفة الغربية، حيث بدأ برنامجاً ضخماً لتوسيع المستوطنات اليهودية.

وتم تعيين بن جفير وزيرا للأمن القومي، ومسؤولا عن الشرطة والسجون، واستخدم سلطته لتشجيع المزيد من اليهود على زيارة جبل الهيكل (الأقصى)، وبين يناير وأكتوبر من عام 2023، قام حوالي 50,000 يهودي بجولة فيه - أكثر من أي فترة مماثلة أخرى مسجلة (في عام 2022، كان هناك 35000 زائر يهودي على الجبل).

وأثارت حكومة نتنياهو المتطرفة الجديدة الغضب بين الليبراليين والوسطيين الإسرائيليين، ولكن على الرغم من أن إذلال الفلسطينيين كان امرا محوريًا في أجندتهم، إلا أن هؤلاء المنتقدين استمروا في تجاهل مصير الأراضي المحتلة والأقصى عندما أدانوا الحكومة، وبدلاً من ذلك، ركزوا إلى حد كبير على إصلاحات نتنياهو القضائية،

ومن شأن هذه القوانين المقترحة، التي تم الإعلان عنها في يناير/كانون الثاني 2023، أن تحد من استقلال المحكمة العليا في إسرائيل – وهي الوصية على الحقوق المدنية وحقوق الإنسان في بلد يفتقر إلى دستور رسمي – وتفكيك النظام الاستشاري القانوني الذي يوفر الضوابط والتوازنات على السلطة التنفيذية، ولو تم إقرارها، لكانت مشاريع القوانين قد جعلت من الأسهل بكثير على نتنياهو وشركائه بناء حكم استبدادي، وربما كانت ستعفيه من محاكمة الفساد.

لقد كانت مشاريع قوانين الإصلاح القضائي بلا شك خطيرة للغاية، وقد ادت الى موجة هائلة من الاحتجاجات ، مع وجود مئات الآلاف من الإسرائيليين الذين يتظاهرون كل أسبوع، ولكن في مواجهة هذا الانقلاب ، تصرف خصوم نتنياهو مرة أخرى كما لو أن الاحتلال كانت قضية غير ذات صلة، وعلى الرغم من أن القوانين تم صياغتها جزئيًا لإضعاف أي حماية قانونية يمكن ان تعطيها المحكمة العليا الإسرائيلية الى الفلسطينيين ، إلا أن المتظاهرين ابتعدوا عن ذكر الاحتلال أو عملية السلام البديلة خوفاً من اعتبارهم غير وطنيين، وفي الواقع عمل المنظمون على تهميش المتظاهرين المناهضين للاحتلال الإسرائيلي لتجنب ظهور صور للأعلام الفلسطينية في المظاهرات، ونجح هذا التكتيك وضمن أن حركة الاحتجاج لم تكن "ملوثة" من قبل القضية الفلسطينية: فالعرب الإسرائيليين ، الذين يشكلون حوالي 20 في المائة من سكان البلاد ، امتنعوا إلى حد كبير عن الانضمام إلى المظاهرات، ولكن هذا الامر جعل من الصعب على الحركة أن تنجح، وبالنظر إلى التركيبة السكانية لإسرائيل ، فان اليهود من اليسار الوسط يحتاجون إلى الشراكة مع العرب الموجودين في البلاد إذا كانوا يريدون تشكيل حكومة، ومن خلال نزع الشرعية عن مخاوف العرب الإسرائيليين ، مارس المتظاهرون دورا في استراتيجية نتنياهو.

ومع خروج العرب، استمرت المعركة حول الإصلاحات القضائية وكأنها شأن يهودي داخلي، واعتمد المتظاهرون علم نجمة داود باللونين الأزرق والأبيض، وكان العديد من قادتهم ومتحدثيهم من كبار ضباط الجيش المتقاعدين، وأظهر المتظاهرون مؤهلاتهم العسكرية، مما عكس التراجع في هيبة الجيش الإسرائيلي منذ غزو لبنان في عام 1982، وهدد الطيارون الاحتياطيون، الذين يمارسون دورًا حاسمًا في استعداد القوات الجوية وقوتها القتالية، بالانسحاب من الخدمة إذا تم إقرار القوانين، وفي استعراض للمعارضة المؤسساتية، رفض قادة الجيش الإسرائيلي قرار نتنياهو عندما طالبهم بتأديب جنود الاحتياط.

ولم يكن من المستغرب أن ينفصل الجيش الإسرائيلي عن رئيس الوزراء، فطوال حياته المهنية الطويلة، اشتبك نتنياهو بشكل متكرر مع الجيش، وكان أقوى منافسيه هم الجنرالات المتقاعدون الذين أصبحوا سياسيين، مثل شارون ورابين وباراك - ناهيك عن بيني غانتس، الذي جعله نتنياهو جزءًا من حكومة الطوارئ الحربية لكنه قد يتحداه في نهاية المطاف ويخلفه كرئيس للوزراء، وقد رفض نتنياهو منذ فترة طويلة وجهة نظر الجنرالات من ان إسرائيل قوية عسكريا لكنها مرنة دبلوماسيا، وقد سخر أيضًا من شخصياتهم التي اعتبرها خجولة، وعديمة التصور وحتى تخريبية، ولذلك لم تكن صدمة عندما أقال وزير دفاعه الجنرال المتقاعد يوآف غالانت، بعد ظهور غالانت على الهواء مباشرة على شاشة التلفزيون في مارس 2023 للتحذير من أن الانقسامات في إسرائيل جعلت البلاد عرضة للخطر وأن الحرب كانت وشيكة.

وأدت إقالة غالانت إلى المزيد من الاحتجاجات العفوية في الشوارع، مما دفع نتنياهو إلى إعادته الى منصبه (هما يظلان خصمين لدودين، حتى وهما يديران الحرب معًا)، الا ان نتنياهو تجاهل تحذير غالانت، كما تجاهل تحذيرًا أكثر تفصيلاً قدمه في يوليو/تموز كبير محللي الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بأن الأعداء قد يضربون البلاد، ويبدو أن نتنياهو يعتقد أن مثل هذه التحذيرات كانت ذات دوافع سياسية وتعكس تحالفًا ضمنيًا بين القادة العسكريين الحاليين في مقر الجيش الإسرائيلي في تل أبيب والقادة السابقين الذين كانوا يحتجون عبر الشارع.

ومن المؤكد أن التحذيرات التي تلقاها نتنياهو ركزت في الغالب على شبكة إيران من الحلفاء الإقليميين، وليس على حماس، وعلى الرغم من أن خطة هجوم حماس كانت معروفة للمخابرات الإسرائيلية، وعلى الرغم من أن المجموعة اجرت مناورات أمام مراكز المراقبة التابعة للجيش الإسرائيلي، إلا أن كبار المسؤولين العسكريين والاستخباراتيين فشلوا في تصور أن خصمهم في غزة قادر على المضي قدماً بالفعل، وقاموا بإخفاء الاقتراحات التي تشير إلى عكس ذلك، وكان هجوم 7 أكتوبر جزئيًا بمثابة فشل للبيروقراطية الإسرائيلية.

ومع ذلك، لا يمكن الدفاع عن حقيقة أن نتنياهو لم يعقد أي مناقشات جادة حول المعلومات الاستخبارية التي تلقاها، وكذلك رفضه التوصل إلى تسوية جدية مع المعارضة السياسية ورأب الصدع في البلاد،

وبدلاً من ذلك، قرر المضي قدماً في انقلابه القضائي، بغض النظر عن التحذيرات الخطيرة والردود السلبية المحتملة، وأعلن بغطرسة أن "إسرائيل تستطيع الاستغناء عن سربين من سلاح الجو، ولكن ليس من دون حكومة".

وفي يوليو/تموز 2023، أقر البرلمان الإسرائيلي أول قانون قضائي، في نقطة مهمة أخرى لنتنياهو وائتلافه اليميني المتطرف (أبطلته المحكمة العليا في نهاية المطاف، في يناير/كانون الثاني 2024)، واعتقد رئيس الوزراء أنه سيرفع من مكانته قريبًا من خلال إبرام اتفاق سلام مع المملكة العربية السعودية، أغنى وأهم دولة عربية، كجزء من صفقة ثلاثية تهدف إلى تحقيق السلام ومن ملامحها اتفاقية دفاع أمريكية سعودية، وستكون النتيجة النصر النهائي للسياسة الخارجية الإسرائيلية: تحالف أميركي عربي إسرائيلي ضد إيران ووكلائها الإقليميين، وبالنسبة لنتنياهو، كان ذلك بمثابة إنجاز كبير جعله محبوبًا لدى التيار الرئيسي.

وكان رئيس الوزراء واثقاً من نفسه لدرجة أنه صعد في 22 سبتمبر/أيلول على منصة الجمعية العامة للأمم المتحدة للترويج لخريطة "الشرق الأوسط الجديد" التي تتمحور حول إسرائيل، وكان ذلك بمثابة انتقاد متعمد لمنافسه الراحل بيريز، الذي صاغ هذه العبارة بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، وتفاخر نتنياهو في خطابه قائلا "أعتقد أننا على أعتاب اختراق أكثر دراماتيكية: سلام تاريخي مع المملكة العربية السعودية"، وأوضح أن الفلسطينيين أصبحوا مجرد فكرة لاحقة لكل من إسرائيل والمنطقة الأوسع، وقال: "يجب ألا نعطي الفلسطينيين حق النقض على معاهدات السلام الجديدة". وقال كذلك ان "الفلسطينيون لا يشكلون سوى 2% من العالم العربي" وبعد أسبوعين، قامت حماس بالهجوم، مما أدى إلى تحطيم خطط نتنياهو.

ما بعد الانفجار

لقد حاول نتنياهو وأنصاره إلقاء اللوم عنه في أحداث 7 أكتوبر، فقد ذكروا ان رئيس الوزراء قد تم تضليله من قبل رؤساء الأجهزة الأمنية والمخابرات الذين فشلوا في اطلاعه على تنبيه اللحظة الأخيرة بحدوث شيء مريب في غزة (على الرغم من أن هذه الأعلام الحمراء تم تفسيرها على أنها مؤشرات على هجوم صغير، أو مجرد ضجيج) ، وكتب مكتب نتنياهو على تويتر بعد عدة أسابيع من الهجوم: "لم يتم تحذير رئيس الوزراء نتنياهو تحت أي ظرف من الظروف وفي أي مرحلة عن نوايا حماس الحربية"، "على العكس من ذلك، فإن تقييم المستوى الأمني بأكمله، بما في ذلك رئيس المخابرات العسكرية ورئيس الشاباك، هو أن حماس تم ردعها وتسعى إلى تسوية" (واعتذر لاحقًا عن هذا المنشور).

الا ان العجز العسكري والاستخباراتي، على الرغم من كآبته، لا يمكن أن يحمي رئيس الوزراء من الذنب - وليس فقط لأن نتنياهو كرئيس للحكومة، يتحمل المسؤولية النهائية عما يحدث في إسرائيل، وإن سياسته المتهورة التي اتبعها قبل الحرب والتي كانت تهدف إلى تقسيم الإسرائيليين جعلت البلاد عرضة للخطر، وأغرت حلفاء إيران بضرب مجتمع ممزق، وساعد إذلال نتنياهو للفلسطينيين على ازدهار التطرف، وليس من قبيل الصدفة أن حماس أطلقت على عمليتها اسم "طوفان الأقصى" وصورت الهجمات كوسيلة لحماية الأقصى من الاستيلاء اليهودي، واعتبرت حماية الموقع الإسلامي المقدس سببا لمهاجمة إسرائيل ومواجهة العواقب الوخيمة الحتمية لهجوم مضاد للجيش الإسرائيلي.

ولم يعفي الجمهور الإسرائيلي نتنياهو من المسؤولية عن أحداث السابع من أكتوبر/ تشرين الأول، فقد تراجعت شعبية حزب رئيس الوزراء في استطلاعات الرأي، كما انخفضت شعبيته أيضا، على الرغم من احتفاظ الحكومة بأغلبية برلمانية، وتم التعبير عن رغبة البلاد في التغيير بشكل اكبر من مجرد استطلاعات الرأي العام، وقد عادت النزعة العسكرية إلى الواجهة، وهرع المتظاهرون المناهضون لبيبي إلى أداء واجباتهم الاحتياطية على الرغم من الاحتجاجات، حيث حل المنظمون السابقون للتظاهرات والمناهضون لنتنياهو محل الحكومة الإسرائيلية المختلة في رعاية الأشخاص الذين تم إجلاؤهم من جنوب البلاد وشمالها، وقد قام العديد من الإسرائيليين بتسليح أنفسهم بالمسدسات والبنادق الهجومية، بمساعدة حملة بن جفير لتسهيل تنظيم الأسلحة الصغيرة الخاصة، وبعد عقود من التراجع التدريجي، من المتوقع أن ترتفع ميزانية الدفاع بنحو 50%.

ومع ذلك، فإن هذه التغييرات، رغم كونها مفهومة، هي عبارة عن تسارعات، وليست تحولات، فلا تزال إسرائيل تتبع نفس المسار الذي قادها إليه نتنياهو لسنوات، وأصبحت هويتها الآن أقل ليبرالية ومساواة، وأكثر عرقية وعسكرية، ويهدف شعار "متحدون من أجل النصر"، الذي يُرى في كل زاوية من الشوارع والحافلات العامة وقنوات التلفزيون في إسرائيل، إلى توحيد المجتمع اليهودي في البلاد، وقد منعت الشرطة الأقلية العربية في الدولة،

والتي أيدت بأغلبية ساحقة وقف إطلاق النار السريع وتبادل الأسرى، مرارا وتكرارا من تنظيم احتجاجات عامة، ووُجهت اتهامات قانونية لعشرات المواطنين العرب بسبب منشورات على وسائل التواصل الاجتماعي عبرت عن تضامنهم مع الفلسطينيين في غزة،

حتى لو لم تدعم المنشورات أو تؤيد هجمات 7 أكتوبر/تشرين الأول، وفي الوقت ذاته يشعر العديد من اليهود الإسرائيليين الليبراليين بالخيانة من قبل نظرائهم الغربيين الذين وقفوا إلى جانب حماس من وجهة نظرهم، وهم يعيدون النظر في تهديداتهم قبل الحرب بالهجرة بعيداً عن استبداد نتنياهو الديني، وتتوقع شركات العقارات الإسرائيلية موجة جديدة من المهاجرين اليهود الساعين إلى الهروب من معاداة السامية المتزايدة التي شهدوها في الخارج.

وكما كان الحال في أوقات ما قبل الحرب، لا يفكر أي يهودي إسرائيلي تقريباً في كيفية حل الصراع الفلسطيني سلمياً، أما اليسار الإسرائيلي الذي كان مهتماً تقليدياً بالسعي إلى تحقيق السلام، فقد أصبح الآن على وشك الانقراض، ويبدو أن حزبي غانتس ولابيد الوسطيين، اللذين يشعران بالحنين إلى إسرائيل ما قبل نتنياهو، يبدو انهما يشعران بأنهما في منزلهما في المجتمع العسكري الجديد ولا يريدان المخاطرة بشعبيتهما السائدة من خلال تأييد مفاوضات الأرض مقابل السلام، واليمين أصبح أكثر عداءً للفلسطينيين من أي وقت مضى.

وقد ساوى نتنياهو بين السلطة الفلسطينية وحماس، وحتى كتابة هذه السطور، ورفض المقترحات الأمريكية لجعلها تحكم غزة بعد الحرب، مع العلم أن مثل هذا القرار من شأنه إحياء حل الدولتين، ويريد رفاق رئيس الوزراء من اليمين المتطرف إخلاء غزة من سكانها ونفي الفلسطينيين إلى بلدان أخرى، مما يخلق نكبة ثانية من شأنها أن تترك الأرض مفتوحة أمام مستوطنات يهودية جديدة، ولتحقيق هذا الحلم، طالب بن جفير وسموتريتش نتنياهو برفض أي نقاش حول ترتيب ما بعد الحرب في غزة والذي يترك للفلسطينيين المسؤولية وطالبوا الحكومة برفض التفاوض من أجل إطلاق سراح المزيد من الرهائن الإسرائيليين، كما حرصوا على عدم قيام إسرائيل بأي شيء لوقف الهجمات الجديدة التي يشنها المستوطنون اليهود على السكان العرب في الضفة الغربية.

وإذا كان الماضي يمثل سابقة، فإن البلاد ليست ميؤوس منها تماما، اذ يشير التاريخ إلى أن هناك فرصة لعودة التقدمية وقد يفقد المحافظون نفوذهم. وبعد الهجمات الكبرى السابقة، تحول الرأي العام الإسرائيلي في البداية نحو اليمين، ولكنه غير مساره بعد ذلك وقبل التنازلات الإقليمية في مقابل السلام، وأدت حرب يوم الغفران عام 1973 في النهاية إلى السلام مع مصر؛

وأدت الانتفاضة الأولى، التي بدأت عام 1987، إلى اتفاقيات أوسلو والسلام مع الأردن؛ وانتهت الانتفاضة الثانية التي اندلعت عام 2000، بالانسحاب الأحادي الجانب من غزة.

الا ان فرص تكرار هذه الديناميكية ضئيلة، اذ لا توجد جماعة أو زعيم فلسطيني تقبله إسرائيل كما حظيت به مصر ورئيسها بعد عام 1973، فحماس ملتزمة بتدمير إسرائيل، والسلطة الفلسطينية ضعيفة، وإسرائيل أيضاً ضعيفة: فقد بدأت وحدتها في زمن الحرب تتصدع بالفعل، والاحتمالات مرتفعة في أن تمزق البلاد نفسها أكثر إذا تراجع القتال، ويأمل المناهضون للبيبيين في التواصل مع البيبينيين المحبطين وفرض انتخابات مبكرة هذا العام، وفي المقابل سوف يثير نتنياهو المخاوف ويتدخل، ففي يناير/كانون الثاني، اقتحم أقارب الرهائن اجتماعاً برلمانياً لمطالبة الحكومة بمحاولة إطلاق سراح أفراد أسرهم، كجزء من معركة بين الإسرائيليين حول ما إذا كان ينبغي على البلاد إعطاء الأولوية لهزيمة حماس، أو عقد صفقة لتحرير الأسرى المتبقين، ولعل الفكرة الوحيدة التي تتوحد حولها هي معارضة اتفاقية الأرض مقابل السلام، وبعد السابع من تشرين الأول (أكتوبر)، يتفق معظم اليهود الإسرائيليين على أن أي تنازل آخر عن الأراضي سيمنح المسلحين نقطة انطلاق للمجزرة التالية.

وفي نهاية المطاف، قد يبدو مستقبل إسرائيل مشابهاً إلى حد كبير لتاريخها الحديث، فمع نتنياهو أو بدونه، ستظل "إدارة الصراع" و"جز العشب" سياسة الدولة - وهو ما يعني المزيد من الاحتلال والمستوطنات والتهجير، وقد تبدو هذه الاستراتيجية الخيار الأقل خطورة، على الأقل بالنسبة للشعب الإسرائيلي الذي تأثر بأهوال السابع من أكتوبر/تشرين الأول، والذي أصم أذنيه عن اقتراحات السلام الجديدة، لكن ذلك لن يؤدي إلا إلى المزيد من الكوارث، ولا يمكن للإسرائيليين أن يتوقعوا الاستقرار إذا استمروا في تجاهل الفلسطينيين ورفض تطلعاتهم، وقصتهم، بل وحتى وجودهم.

وهذا هو الدرس الذي كان ينبغي للبلاد أن تتعلمه من تحذير ديان القديم، ويجب على إسرائيل أن تمد يدها للفلسطينيين ومع بعضهم البعض إذا كانوا يريدون تعايشاً صالحاً للعيش ومحترماً.

مركز حمورابي للبحوث و الدراسات الاستراتيجية

أسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية في،18-11-2006 بمدينة بابل(الحلة)، كمركز علمي بحثي يمتد الى دراسة الموضوعات السياسية و المجتمعية بصورة علمية و استراتيجية، فضلاً عن التركيز على القضايا والظواهر الحادثة والمحتملة قي الشأن المحلي والأقليمي والدولي ، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

www.hcrsiraq.net

07810234002

hcrsiraq@yahoo.com

t.me/hammurabicrss

hcrsiraq

hcrsiraq

العراق - بغداد- الكرادة - العرصات الهندية-قربالسفارةالصينية